



الباب الأول

بين الجهادين الأصغر والأكبر

الفصل الأول

نوعا الجهاد

يتغير (مفهوم الجهاد) بمقتضى الظروف التى تؤدى إليه ، فيكون فرضاً فى موضع وواجباً فى آخر، ومباحاً فى موضع ثالث والفرق كبير بين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبين القاعدين عن الجهاد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَى مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَى ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ نُوْفُكُونَ﴾ [سورة الأنعام - الآية ٩٥].

إن الجهاد الأكبر هو الطريق الذى يسلكه الإنسان طوال حياته ، أينما كان وكيفما كان ، وفى أى ظرف كان فهو عملية إعلاء الإنسان ورفعته إلى مستوى الإنسانية الحقة من حيث حياته القلبية والروحية أى : محاولة الإنسان طوعاً أو كرهاً جهاد نفسه على مدى حياته كلها ، ومقاومتها لكل ما لا يرضى عنه الله جل وعلا .

أمّا الجهاد الأصغر فهو جهاد الإنسان بماله ونفسه فى سبيل الله حفاظاً على مقدساته وإذا اقتضى الأمر^(١) قتال الأعداء وجهاً لوجه .

إن مفهوم الجهاد (بمعناه الشرعى) فى الإسلام هو (الدفاع) وليس (العدوان) . وهذا ينطلق من علاقة المسلم بغير المسلم التى (حددها القرآن تحديداً دقيقاً ، فإذا مدّ غير المسلم يده بالسّلام والأمان والتعاون

(١) محمد فتح الله كولن - إعلاء كلمة الله أو (الجهاد) - دار النبيل للثقافة والنشر ط١ سنة ٢٠٠١ مترجم عن التركية ص ٢٢ .

وجب على المسلم أن يردَّ عليه هذه المعاملة بمثلها أو بأحسن منها، أما الذى يعتدى على حقوق المسلمين أو كرامتهم أو أعراضهم فإن الإسلام يدعو المسلمين إلى الدفاع عن أنفسهم دون أن يكونوا هم المعتدين^(١).

فالجهد فى الإسلام مقصودٌ به الدفاع عن النفس، وعن المال، وعن العرض، وعن الوطن، وعن الكرامة الإنسانية وهو الدفاع عن المظلوم، وعن الحق إذا اغتصب.

ومن يقول إن الجهد قتل أو سرقة أو ظلم فهو منحرف عن المفهوم الإسلامى الصحيح.

إن الإسلام يقوم على الحوار، والبعد عن الاقتتال، وإراقة الدماء. فالإسلام دين (الأخوة) بين البشر، واحترام حقوق الإنسان وكرامته، وهو يعطى لغير المسلم نفس الحقوق التى يعطيها للمسلم، ويفرض عليه نفس الواجبات.

ولا صلة مطلقاً بين الجهد فى الإسلام والإرهاب، فالجهد من شرع الله والإرهاب عدوان على الآمنين.

(إن الفرق بين الجهد والإرهاب كالفرق بين السماء والأرض. فالجهد شرعه الله تعالى للدفاع عن الدين والوطن والعرض والمقدسات، أما الإرهاب فهو عدوان على الآمنين)^(٢).

(١) رجب البنا - الغرب والإسلام - دار المعارف ط٣ سنة ٢٠٠١.

(٢) أحمد بهجت - جريدة الاهرام القاهرة ٦ من ذى القعدة سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م. يناير سنة ٢٠٠٢م.

سیر الرسول ﷺ الجيوش لا للقتال بل للفتح الإسلامى وتأمين حدود الدولة، والدفاع عنها. وشُرِّعَ (الجهاد) للدفاع عن حقوق الناس، وعن أنفسهم، ودينهم، واختياراتهم.

ورد فى الحديث النبوى نوعان للجهاد:

أحدهما: الجهاد الأكبر: وهو الجهاد الذى يقوم به الإنسان مع نفسه، فيبلغ بها معرفة نفسه، ويصل بها إلى ذاته وإلى ربه، ويجتاز العقبات حتى يصل إلى معرفة الله ومحبته.

وثانيهما: الجهاد الأصغر: وفيه يحقق الإنسان إزالة الموانع بينه وبين الله بالنضال أو القتال.

والجهاد هو غاية خلق الإنسان.

والفهم لهذا النوع من الجهاد على أنه يؤدَّى فى جبهة القتال فحسب يقلص أفقه، حيث إن ميدان الجهاد واسع جدًا، يمتد من الشرق إلى الغرب، وعلى سعته وشموله قد يكون كلمة واحدة، أو سكوتًا، أو صمتًا، أو تبسمًا، أو طلاقة وجه، أو امتعاضًا، أو نفورًا، أو تركًا لمجلس، أو مشاركةً فيه، وباختصار هو القيام بأى عمل من الأعمال لوجه الله، فإن كل جهد يبذل لإصلاح المجتمع فى أى ميدان من ميادين الحياة، ولأى شريحة من شرائح المجتمع، هو لون من ألوان الجهاد الإسلامى.

الجهاد الأصغر فى معنى من معانيه جهاد مادى. أما الجهاد الأكبر فيشكل الجانب المعنوى من الجهاد، فهو جهاد الإنسان لنفسه وللعالم

الداخلي. فمتى أوفى حق هذين الجهادين معاً فقد تأسس التوازن المطلوب^(١).

إن الجهاد رغبة في الخير، لذا فإن المجاهد يحقق لنفسه السعادة النفسية وللآخرين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إن الجهاد الأصغر تنفيذ لأوامر الدين عملياً وأداء ما كُلف به الإنسان من جهاد وقاتل للمعتدين.

أما الجهاد الأكبر: فهو محاربة العوائق في النفس البشرية، تلك التي تعوق عن حسن الخلق وكماله بما فيها من حسد أو أنانية أو غرور وغيرها من صفات النفس الأمارة بالسوء.

وجهاد النفس صعب، لذا قال الرسول ﷺ عند رجوعه من إحدى الغزوات: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

والجهاد الأكبر كما حققه الرسول ﷺ جاء متسقاً مع صفة (الرحمة) التي تمثلت في كل سلوكياته، فكان (جهاده الأكبر) لتحقيق هذه الصفة الغالبة على أفعاله.

أما جهاده الأصغر فتمثل في مواقف (الدعوة) إلى الإسلام وتجلي من خلال هذه الصفة السلوكية العظيمة أيضاً (الرحمة) التي وصف بها الله سبحانه وتعالى ذاته العظيمة.

(١) محمد فنجح الله كولن - إعلاء كلمة الله أو الجهاد - دار النيل للطباعة والنشر. ص ٢٣٤

قال تعالى: ﴿ وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾ [الكهف: ٥٨].
 وقد وسعت رحمة الله كل شيء، كما أنه أنزل القرآن الكريم (رحمة للعالمين) يحمل لهم الدستور السماوى الذى يضمن لن يسير على هديه السعادة والرضا فى الدنيا والجنة فى الآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (٥٧) وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً ﴾ [الكهف: ٥٧، ٥٨].
 ومن رحمة الله سبحانه بعباده أن جعل النبى ﷺ رحمة للعالمين، وجعل مقصد دعوته الرحمة بهم.

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
 أراد الخالق سبحانه أن يكون محمد ﷺ القدوة والمثال للبشرية «أدبى ربي فأحسن تأديبى» هكذا قال الرسول عن نفسه.

وقال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْتَهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٧-١٠].
 وكانت الدعوة إلى القيم والفضائل وحسن الخلق هى رسالته، وفيها تمثل الجهاد الأكبر.

لقد أرسل الله الرسل كل رسول إلى قومه، لكنه أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الناس.

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٨] وأشار القرآن الكريم إلى أهمية اتخاذه أسوة حسنة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وتظل مجاهدة النفس لتلتزم بمثل خلقه.

إن الرسول محمد ﷺ (نبي الرحمة) قدّم القرآن الكريم للبشر كما أنزله عليه الخالق سبحانه، وحاول شرحه وتفسيره لهم من خلال أقواله وأفعاله.

وكان يقدم لهم أمثلةً حية من الرحمة بهم، رحمة الخالق سبحانه، ورحمته تعالى كرَسُولٍ ومبَلِّغٍ لرسالة ربه، ومبشِرٍ وهادٍ، اختاره الخالق لهذه المهمة الصعبة، والرسالة المقدسة.

ويظل القرآن الكريم (رحمة) للبشر مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

ومن الجهاد الأكبر: الاقتداء بالرسول الكريم في حبه للقرآن، واهتمامه بالعمل بأوامره والانتها عن نواهيه، وحسن تلاوته، مما يكسب الإنسان سكينته النفس، وهدوء البال، وقوة الإرادة، ويسر له الأجر العظيم، والثواب الجزيل، وبذلك يسعد في دنياه وآخرته، ويجنى ثمار جهاده الأكبر حيث يقتدى بالرسول الكريم في حبه للقرآن الكريم، ولا يعاني ألمًا ولا قلقًا ولا هلعًا ولا حزنًا، ولا أرقًا ولا كدرًا.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا أَيُّكُمْ مَنِي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ

عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٦﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْنَمَا فَتْسِبْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِّي ﴿١٢٦﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٦].

إن الاقتداء بسنة النبي ﷺ مما يمكن الإنسان من النجاح في الجهاد الأكبر، فقد «كان خلقه القرآن».

حقاً إن محمداً ﷺ هو الجدير وحده في هذا العالم أن يكون القدوة للبشرية والمثال الذي يحتذى بأقواله وأفعاله، حيث إن سنته التي تركها للبشرية من أقوال وأفعال كانت تطبيقاً في حياته لما جاء في القرآن الكريم، تحققت فيها الهداية الحقيقية من خلال طاعة أوامر الخالق سبحانه والانتهاز عن نواهيه.

قال تعالى عن كتابه العظيم: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَر شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

ولا شك أن تقدم الإنسان الحقيقي وحضارته ورفقه وسعادته ونجاحه في أن يحقق في الحياة ما يجعله جديراً بتكريم الله له، كل هذا لا يتحقق إلا من خلال تطبيق سلوكيات الإسلام، وأخلاقه التي التزم بها الرسول الكريم، من خلال تطبيق ما جاء بالقرآن الكريم.

إن الجهاد الأكبر من أبرز معالم الإسلام التي أهلتها للعالمية، بما منحت من قدرة على إشاعة العدل والتسامح والبعد عن الظلم والعنف والشطط، والقرب من السلم والمحبة.

فهو دعوة لسيادة الحضارة بما تميّز به من أخلاقيات وأسس رائعة تلزم المجاهد باتباعها حتى إذا لم يعمل بها الطرف الآخر.

فهو يجاهد في نفسه كل ما يهوى بها إلى الشر والفساد. ويزكى في نفسه كل ما يحقق لها السمو والارتقاء.

ويتجلى الجهاد الأكبر في جهاد النفس وتربيتها، وتعويدها أحسن الخلق والسلوكيات.

وقد تحقق ذلك عند بعثة الرسول محمد ﷺ، حيث كان الإصرار من المَلَك (جبريل) المرسل بالوحي بطلب القراءة.

قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝﴾ [العلق: ١-٤].

وكانت المجاهدة في تحقيق ما جاء به جبريل من آيات القرآن الكريم وتحقيقه وتأكيد أهميته وإبلاغ رسالته، حتى تحول المجتمع من الأمية والجهل إلى الحضارة والتقدم.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٤﴾ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝﴾ [الجمعة: ١٤].

وكانت إرادة الله سبحانه أن يتحقق البعث الحضاري للأمة من جديد من خلال تلاوة آيات القرآن الكريم وتدبرها وتعلمها، والعمل بتعاليمها، وأن يكون النبي المعلم الرائد للبشرية، باعثة للحضارة والتقدم، يُعلم البشر كتاب الله، فيكون الرقي، وتبعث الحضارة العظيمة التي يأخذ منها العالم بأسره، ويتقدم على مدى الأزمان.

كان التحدى للأمية هو الطريق لازدهار الحضارة الإسلامية، وكان للكلمة أهميتها وأثرها العظيم.

قال تعالى: ﴿الَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

ضرب الرسول ﷺ أروع الأمثلة في أسلوبه ولغته ومنهجه في الدعوة إلى الإسلام «بالحكمة والموعظة الحسنة».

وظلت أحاديثه وستبقى واحدة للنفوس ومثالا للبلاغة والجمال اللغوي، فقد أوتى «جوامع الكلم». واستطاع أن يغير وجه الدنيا، وكانت للغته العربية الجميلة الفاعلية والقدرة على التعبير والتأثير وبعث الحضارة العربية.

قال عن نفسه: «أنا أفصح العرب، بيّد أنى من قريش». وهذا يؤكد ريادته لبلاغة الكلام، وفصاحته خاصة، لأنه من قريش، وأن قريشاً كانوا أفصح العرب السنة، وأخلصهم لغة، وأعذبهم بياناً^(١). وتأثر الكثيرون بفصاحته، وتعلموا من بلاغته، وأشاد به الشعراء، وقالوا فيه أجمل الأشعار، ولا ينسى أحد قصيدة (كعب بن زهير) التي يقول فيها:

إن الرسولَ لَنورٍ يُستضاءُ به مهنَّدٌ من سيوفِ الله مسلولُ
في عُصبةٍ من قريشٍ قال قائلُهُم ببطنِ مكة لما أسلموا زولوا

(١) الرافعي - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - دار الكتاب العربي - ط. ٩ - ص ٢٨٦.

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً وليسوا مجازيعةً إذا نيلوا

ومن قصائد الشاعر (حسان بن ثابت) قوله :

وأحسنُ منك لم تر قطُّ عيني وأجملُ منك لم تلد النساءُ
خُلقت مبرأً من كلِّ عيبٍ كأنك قد خُلقت كما تشاء
إن الجهاد الأكبر هو ما أوصل النبي ﷺ إلى هذه الشخصية المثالية
التي يتعلم من سنتها البشر في كل زمان وفي كل مكان، ويجاهدون
في ذلك.

ذهب شخصٌ إلى الرسول ﷺ يحاول إغراءه ليتوقف عن الدعوة،
فتحدث إليه الرسول ﷺ وأسمعه بعض آيات من القرآن الكريم، فلما
عاد إلى قومه قال: «إني والله سمعت قولاً والله ما سمعتُ مثله قط، والله
ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، خلوا بين
هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكون لقوله الذي سمعتُ منه نبأً
عظيم»^(١). وهذا مثال لأثر أحاديثه في جميع من حوله.

لقد ترك كنزاً رائعاً للبشرية في أحاديثه الشريفة التي اهتمت
بالإنسان وتعاملاته، وكل شؤون حياته.

ولا غرابة في ذلك، حيث تربي على القرآن الكريم وتأثر ببلاغته
العظيمة، التي خاطبت العرب بأصفي لغاتهم، وأمتن أساليبهم، وأبلغ
تشابيههم واستعاراتهم، وألطف كتاباتهم، وأوجز تعابيرهم. فجاءت
أحاديث الرسول ﷺ في صور بليغة، وألفاظ دقيقة متناسقة، حتى تمكن

(١) ابن هشام - من السيرة النبوية - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٣٢، ٣٣.

من إبلاغ رسالته، وحوّل أمته من قبائل معزولة عن الحضارة إلى أمة ذات علم وحضارة، كان لها تأثيرها العظيم في العالم كله.

وكان للرسول المعلم الأول للبشرية أساليبه العظيمة في تعليم من حوله وتربيتهم ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [النجم: ٢-٣] وتزكية النفس والرقى بها.

جهاد أكبر يجاهده الإنسان دائماً حتى يصل إلى سلوك الشخصية الفاضلة. **أما الجهاد الأصغر:** فهو ذلك الجهاد الذي يُضطر إليه المسلمون للدفاع بالمال أو بالنفس عن حياتهم، أو دينهم، أو كرامتهم، أو وطنهم، أمام معتدٍ لا يرتدع بالسلم، أو الإقناع، أو الحوار. وقد واجه الرسول ﷺ وصحابته والسلف الصالح من بعدهم أحداثاً ومواقف كثيرة مع هؤلاء المعتدين.

وكان لا بد من الامتثال لأمر الخالق سبحانه، بضرورة الجهاد بالمال أو بالنفس لمواجهة المعتدين، والدفاع عن أنفسهم وإعادة حقوقهم. وكانت الهجرة من مواقف الجهاد لنصرة الدين. ثم كانت غزوات النبي وصحبه لنشر الدين الحق.

كانت الهجرة من مكة إلى المدينة من الأحداث المهمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد كانت نهايةً لعهدٍ تعرض فيه المسلمون لألوان مختلفة من الاضطهاد والأذى، فجاهدوا وما ضعفوا ولا استكانوا، وبدايةً لعهدٍ جديد نصر الله فيه الإسلام نصراً عظيماً، كان لا بد من الجهاد، وكان لا بد من الهجرة والفرار إلى الله بدينهم بعد كل ما تحملوه من مواقف الإيذاء، والظلم، والفتنة.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۗ وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرَ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠].

إن هؤلاء الطغاة لم يكتفوا بما كان منهم من تعذيب واضطهاد لمحمد وأصحابه، ولكنهم في فجورهم لا يقفون عند حد، منهم من يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم وسخرية منهم^(١).

وفي تصوير ذلك قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

وليس هناك انفصال بين النوعين من الجهاد الأكبر والأصغر، وإنما هما يرتبطان ارتباطاً لازماً.

(١) محمد الدسوقي - الهجرة في القرآن - دار المعارف - سلسلة اقرأ - ج ٢٣٨ - سنة ١٩٧٧ - ص ٣٤.

فبالجهاد الأكبر تتدرب النفس وتتحصن الشخصية بما يؤهلها للقيام بالجهاد الأصغر بما يستلزم من قوة وإرادة.

وقد كانت الهجرة أول نوع من أنواع الجهاد الأصغر، فهي الحادثة الوحيدة في تاريخ البشر التي خص الله سبحانه وتعالى بها النبي محمداً ﷺ حين اشتدت عداوة المشركين له، ووقوفهم ضد دعوته فنزل له الأمر الإلهي في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وفي سبيل الهجرة والدعوة اتبع الرسول ﷺ النوع الأول من نوعي الجهاد، وهو إلزام النفس بحسن الخلق، والتزام الحق، والتخلي عن العصبية الجاهلية، وهو الجهاد الأكبر الذي يؤسسه النبي ﷺ بأحاديثه إلى البشر التي تنمي لديهم الالتزام بحسن الخلق، وبأفعاله وسلوكياته التي يتعلمون منها، ويقتدون بها.

ويستعين النبي ﷺ بدوره بما يتعلمه، ويطبقه مما يوجهه إليه الخالق سبحانه في آيات كتابه العظيم القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ نَعَلْنَاكَ بَصِيرًا إِذْ يَقُولُ مَا يُؤْمِنُ ﴾ (١٧) ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٩٨) ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩].

لقد تيقن النبي ﷺ أن تربية النفس ومجاهدتها حتى يكون المسلم حسن الخلق قادراً على الدعوة وعلى الجهاد في سبيل نشرها، فاهتم بدور المسجد، وعقد فيه المعاهدات بينه وبين قبائل اليهود.

وأرسى أسسَ السلام والسماحة في العلاقة بين الإسلام والأديان الأخرى، ومراعاة حقوق الإنسان دون تعصب. وظهر كل ذلك في موقف الهجرة حيث كانت تلك العلاقة الرائعة بين المهاجرين والأنصار، وقد عبّر عنها القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بِكَ قُلُوبُهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ الْآلِفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد اهتم الرسول ﷺ بإشاعة الرحمة بين الجميع، ليحقق ما أمر به كتاب الله العظيم، من إشاعة مشاعر الرحمة التي فطر الناس عليها، ليرحم الناس بعضهم بعضاً، كما يرحمهم الخالق سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّدًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وكانت الهجرة جهاداً أحاطه الله سبحانه بحمايته. وكان النبي ﷺ مطمئناً أن الله سبحانه معه، ومع صاحبه أبي بكر، فطمأنه قائلاً: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن إن الله معنا».

وجعل الله سبحانه من خيوط العنكبوت سداً منيعاً، وكانت معهما جنود الله التي لا يعلم قوتها إلا هو:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الم نشر: ٣١]. وعادت جحافل قريش من حيث أنت.

وسبق هذا مواقف الفداء العظيمة، حين نام عليُّ رضا الله عنه على فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة، وأوكل لأسماء بنت أبي بكر دوراً هاماً لتذهب إلى الرسول ﷺ وأبيها أبي بكر رضا الله عنه في غار ثور كل مساء تحمل إليهما الغذاء والماء في طريقٍ وعراً، وظلام حالاً، لاتخشى إلا الله. وبعد ثلاثة أيام في الغار بدأت المسيرة عبر طريقٍ وعراً طويل تشقه الناقة القصواء، لتشهد خلالها ملاحم من بطولة وفداء في مواجهة أمهر فرسان قريش التي لاحقت النبي ﷺ وصاحبه.

واستقبلت المسيرة في المدينة نماذج رائعة من الصحابة والصحابيات، الذين قدّموا صوراً عظيمة من الجهاد والبذل والعطاء والأخوة والمحبة والإيثار. وعبرت الآيات القرآنية العظيمة عن ذلك كله في مثل قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩].

وكانت وصايا الرسول ﷺ لجماعة أصحابه في أسس الدعوة إلى الإسلام وللقادة الذاهبيين لمواجهة عدو لا يرحم، وأنهم لن ينشروا الإسلام بالسيف لكن السلام هو القاعدة، أما الحرب فهي ضرورة إذا اضطروا إليها. وضرب الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه أروع المثل في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولم تكن الهجرة هي الموقف الأخير في جهاد الرسول ﷺ وصحابته في سبيل الدعوة للإسلام، وإنما اضطروا إلى مواجهات أخرى كثيرة

اتبعوا فيها أساليب كثيرة للجهاد في سبيل تبليغ كلمة الله، وهي كلمة الحق، حتى وصلوا بالدعوة إلى بر الأمان.

لقد ظل الرسول ﷺ يدعو الناس إلى الله في مكة ثلاثة عشر عاماً، بدأها بالجهاد المعنوي وهو الجهاد الأكبر الذي تمثل في إرساء حسن الخلق، والقيم السلوكية النبيلة في النفوس وترك العادات السيئة والتقاليد البالية.

أما الجهاد الثاني (الجهاد الأصغر) فهو ما تمثل في الحروب التي أذن للرسول وأصحابه بالقيام بها بعد الهجرة إلى المدينة، وتكوين الدولة الإسلامية حيث صدر الإذن الإلهي في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]. وكان القتال لرد الاعتداء الذي وقع على المسلمين وإخراجهم من ديارهم.

وصار الجهاد عقيدة إسلامية وفضلاً على المسلمين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعِدِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي تجمع الجهادين، قول الرسول ﷺ: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكث من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله» الترمذي، فضائل الجهاد.

وفى تأكيد معنى أهمية جهاد النفس باعتباره الجهاد الأكبر، يأتي قول الرسول ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر».

وهناك آيات قرآنية كريمة تجمع بين الجهادين، منها:
قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٦٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿سورة النصر﴾.

إن النظرة العادلة للإسلام تؤكد أنه لا يقوم على الإرهاب، وأن هناك مجالات واسعة للتعاون بين الإسلام والأديان الأخرى.

ولا يتبنى الإسلام قط فكرة الهجوم أو العداء أو الخصومة والصراع، لكن يؤكد دائماً على ضرورة التسامح والعدل والرحمة والبعد عن الظلم والعنف، والتحلى بالشجاعة والإقدام والثبات والصبر والتضحية بالروح والمال، دفاعاً عن الأرض أو العرض أو الحرية.

أما هذا التصوير الظالم للجihad في الإسلام بما يدعيه البعض أنه يدعو إلى القتل والاعتقال، وأنه يرفض التعايش مع الآخر، فهو تصوير باطل واتهام كاذب.

لقد أكدت الحقائق عكس ذلك تماماً، فمثلاً عندما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة أقام المجتمع على العدل، فعقد الصلح مع اليهود والمشركون، واستقبل نصارى نجران في مسجده، وكانت المدينة تضم خليطاً من العقائد المختلفة، لكن الرسول ﷺ نهى عن الإساءة إلى المخالفين له، عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

استقر النبي ﷺ بالمدينة، وأسس بها حكومته النبوية، وكان مستهدفاً من قريش للقتل، وكان أصحابه مُهددون أيضاً، فنزلت الآيات الكريمة، تحثهم على حماية أنفسهم، ودينهم، بالدفاع والمواجهة.

«لقد سمح الإسلام للمسلمين أن يدافعوا عن أنفسهم، وعن الدين الذى أنزل للإنسانية كافةً فى عالم يضيع فيه الحق إن لم تكن وراءه قوة تؤيده، فكان لا مناص من السماح للمسلمين بحماية أنفسهم ودينهم بالسلاح الذى يشهره خصومهم فى وجوههم»^(١).

ومن أهم سمات العلاقة بين الرسول ﷺ وغير المسلمين: المعاهدة التى تعتبر وثيقة تاريخية عظيمة والتى عقدها الرسول ﷺ مع اليهود بالمدينة. فقد أكدت فكر الرسول ﷺ الغنى بروح السلام والمصالحة والمسألة.

ومن نصوص هذه المعاهدة: أن المسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمةً واحدة، وأنه لا يحق لمن أقر بما فى المعاهدة أو الصحيفة أن ينصر مجرمًا أو يأويه وإلا تحل عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة.

ونصت الصحيفة على أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأن من خرج من المدينة آمن، ومن قعد بها آمن، والله يراقب ويحاسب الجميع. هذه المعاهدة تؤكد إيمان الرسول ﷺ بالسلام والسكينة والتعاون، وحرية الاعتقاد الدينى، ونصرة المظلوم وحماية الجار، ورعاية الحقوق.

(١) محمد فريد وجدى - السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة -